سلسلة
قصص في الأخلاق
٣
قصص في الإيثار
عاطف عبد الرشيد
دار الفوتاني
منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

سلسلة قصص الأخلاق

٣

قصص في

إعداد
عاطف عبد الرشيد

كُلُّهُمْ مِنَ الأخْيارِ

نَادَى أميرُ المؤمِنينَ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ـ خَادِمَهُ، وأعْطَاهُ صُرَّةً بِهَا أرْبَعُمِئة دِينَارٍ، وأمَرَهُ أنْ يذْهَبَ بِهَا إلَى أبِي عُبَيدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ـ وطَلَبَ مِنْهُ أنْ ينْتَظِرَ عِنْدَهُ سَاعَةً، حَتَّى يَرَى مَا يصْنَعُ أبُو عُبَيدَةَ بِهَذِهِ الدَّنَانِيرِ.

فَأخَذَ الخَادِمُ الصُّرَّةَ، وذَهَبَ بِهَا إلَى أبِي عُبَيدَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ـ ، فَقَالَ: يقُولُ لَكَ أميرُ الْمُؤمِنِينَ: اجْعَلْ هَذِهِ فِي بَعْضِ حَاجَتِكَ.

فَقَالَ: وَصَلَهُ اللَّهُ ورَحمهُ.

ثُمَّ نَادَى خَادِمَتَهُ، وقَالَ لَهَا: اذْهَبِي بِهَذِهِ الدَّنَانِيرِ السَّبْعَةِ إلَى فُلانٍ، وبِهَذِهِ الخَمْسَةِ إلَى فُلانٍ، وبِهَذِهِ الخَمْسَةِ إلَى فُلانٍ. حَتَّى انْتَهَتْ كُلُّ الدَّنَانِيرِ.

وعَادَ الخَادِمُ إلَى أميرِ الْمُؤمِنِينَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ـ فَأخْبَرَهُ بِمَا حَدَثَ، فَأعْطَاهُ مِثْلَ ما أعْطَاهُ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ، وقَالَ لَهُ: اذْهَبْ بِهَا إلَى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ـ .

فَذَهَبَ الخَادِمُ بِالدَّنَانِيرِ إلَى مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه، وأخْبَرَهُ بِأنَّ أميرَ الْمُؤمِنِينَ قَدْ أرْسَلَ لَهُ تِلْكَ الدَّنَانِيرَ؛ لِينْفِقَهَا فِي حَاجَتِه، فَدَعَا لأميرِ الْمُؤمِنِينَ بِالخَيرِ، ثُمَّ نَادَى خَادِمَتَهُ، وأخَذَ يعْطِيهَا الدَّنَانِيرَ، ويقُولُ لَهَا: اذْهَبِي إلَى بَيتِ فُلانٍ بِكَذَا، وبَيتِ فُلانٍ بِكَذَا.

فَعَلِمَتْ زَوجَةُ مُعَاذٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما ـ بِوجُودِ الْمَالِ، فَقَالَتْ: نَحْنُ ـ واللَّه ـ مَسَاكِينُ، فَأعْطِنَا، فَنَظَرَ فِيمَا تَبَقَّى مَعَهُ، فَلَمْ يجِدْ إلا دِينَارَينِ، فَأعْطَاها إيَّاهُمَا.

ورَجَعَ الخَادِمُ إلَى أميرِ الْمُؤمِنِينَ، فَأخبَرَهُ بِمَا حَدَثَ، فَقَالَ أميرُ الْمُؤمِنِينَ: إنَّهُمْ إخْوَةٌ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

طَعَامٌ فِي الظَّلامِ

ذَهَبَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ، يزِيدُ عَدَدُهُم عَلَى ثَلاثِين رَجُلاً، لِزِيارَةِ صَدِيقٍ لَهُمْ، ولَمْ يكُنْ عِنْدَ الصَّدِيقِ إلا عَدَدٌ مَحْدُودٌ مِنْ أرْغِفَةِ الخُبْزِ، لا تَكْفِي لإطْعَامِ هَذَا العَدَدِ.

اقْتَرَحَ أحَدُ الأصْدِقَاءِ أنْ يقَطِّعُوا أرْغِفَةَ الخُبْزِ الَّتِي مَعَهُمْ، ويقَسِّمُوهَا إلَى قِطَعٍ صَغِيرَةٍ، ثُمَّ يأكُلوا مَعاً.

واقْتَرَحَ آخَرُ أنْ يطْفِئوا الْمِصْبَاحَ عِنْدَ الأكْلِ؛ حَتَّى يأكُلَ كُلُّ وَاحِدٍ مَا يكْفِيهِ، دُونَ أنْ يشْعُرَ بِأنَّ أحَداً يشَاهِدُهُ، فَيشْعُر بِالْحَرَجِ.

وبِالْفِعْلِ أحْضَرُوا الأرْغِفَةَ، وقَطَّعُوهَا قِطَعًا صَغِيرَةً، ثُمَّ وضَعُوهَا أمَامَهُمْ، وأطْفَئوا الأنْوَارَ، وجَلَسُوا لِيأكُلوا.

وبَعْدَ مُدَّةٍ، أضَاؤُوا الأنْوَارَ فَوَجَدُوا مُفَاجَأةً عَجِيبَةً.. وجَدُوا أنَّ قِطَعَ الخُبْزِ كَمَا هِي لَمْ تَنْقُصْ.

فَلَقَدْ آثَرَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ الآخَرِينَ عَلَى نَفْسِه، ولَمْ يمُدَّ يدَهُ نَحْوَ الطَّعَامِ، ولَمْ يأكُلْ، وفَضَّلَ أنْ يبِيتَ جَائعاً، وتَرَكَ الفُرْصَةَ لإخْوَانِهِ؛ حَتَّى يأكُلوا ويشْبَعُوا.

* * * * *

التَّمْرَاتُ الثَّلاثُ

سَمِعَتْ أمُّ الْمُؤمِنِينَ السَّيدَةُ عَائِشَةُ - رَضِي اللَّهُ عَنْهَا - طَرَقَاتٍ عَلَى بَابِهَا، فَلَمَّا نَظَرَتْ، وجَدَتْ امْرَأةً مِسْكِينَةً، ومَعَهَا ابْنَتَاهَا الصَّغِيرَتَانِ، وطَلَبَتْ المَرأةُ مِنْهَا طَعَامًا.

ولَمْ يكُنْ فِي بَيتِ السَّيدَةِ عَائشَةَ - رَضِي اللَّهُ عَنْهَا - فِي هَذَا الْيومِ إلاَّ ثَلاثُ تَمْرَاتٍ، فَأحضرتْهَا، وأَعْطَتْهَا الْمَرأةَ.

أخَذَتِ الْمَرأةُ التَّمْرَاتِ، وأَعْطَتْ كُلَّ بِنْتٍ تَمْرَةً، وأخَذَتْ هِي التَّمْرَةَ الثَّالِثَةَ.

فأكَلَتِ البِنْتَانِ التَّمْرَتَينِ، ثُمَّ نَظَرَتَا إلَى التَّمْرَةِ الَّتِي فِي يد أُمِّهِمَا، فَلَمْ تَتَرَدَّدِ الأُمُّ، وشَقَّتِ التَّمْرَةَ نِصفَينِ، وأعْطَتْ كُلَّ بِنْتٍ مِنهُمَا نِصفاً، وفَضَّلَتِ الأُمُّ أنْ تُطْعِم ابْنَتَيهَا وتَبْقَى جَائعَةً. فَأعْجَبَتْ أمُّ الْمُؤمِنِينَ عَائشَةُ - رَضِي اللَّهُ عَنْها - بِمَا فَعلَتْهُ هَذهِ الْمَرْأةُ.

ولَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حكَتْ لَهُ السَّيدَةُ عَائشَةُ - رَضِي اللَّهُ عَنْها - هذَا الْموقفَ الَّذِي يدُلُّ عَلَى إيْثَارِ الأمِّ، فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ ﷺ: «إنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الجَنَّةَ».

* * * *

إيثارٌ حتَّى الْموتِ

فِي مَعْرَكَةِ الْيرْمُوكِ، أُصِيبَ الحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ، وعِكْرِمَةُ بنُ أبِي جَهْلٍ، وعَيَّاشُ بْنُ أبِي رَبيعَةَ بِجرُوحٍ شَدِيدَةٍ.

وبَينَمَا هُمْ رَاقدُونَ فِي خيمَةِ الْجَرْحَى، طَلَبَ الْحَارِثُ مَاءً ليشْرَبَ، فَأحْضَرَ رَجُلٌ لَهُ الْمَاءَ، وكَانَ الْمَاءُ قَليلاً، وقَرَّبَهُ مِنْ فَمِ الحَارِثِ لِيشْرَبَ، ولَكِنَّ الحَارِثَ لاحَظَ أنَّ عِكْرِمَةَ ينْظُرُ إلى الْمَاءَ، فَعَرَفَ أنَّهُ يريدُ أنْ يشْرَبَ، فَقَالَ الحَارِثُ للرَّجُلِ: أعْطِهِ لَهُ.

فلَمَّا ذَهَبَ الرَّجُلُ بِالْمَاءِ إلَى عِكْرِمَةَ، كَانَ إلَى جِوَارِهِ عَيَّاشٌ، فَلَمَّا هَمَّ عِكْرِمَةُ أنْ يشْرَبَ، لاحَظَ أنَّ عَيَّاشاً ينْظُرُ إلَى الْمَاءِ، فقَالَ عِكْرِمَةُ للرَّجُلِ: أعْطِهِ لَهُ. فَلَمَّا وصَلَ الرَّجُلُ إلَى عَيَّاشٍ، وجَدَهُ قَدْ مَاتَ.

فَرَجَعَ الرَّجُلُ بِالْمَاءِ مَرَّةً أُخْرَى إلَى عِكْرِمَةَ، فَوَجَدَهُ قَدْ مَاتَ، فَعَادَ بِهِ إلَى الحَارِثِ فَوَجَدَهُ قَدْ مَاتَ أيضاً.

مَاتُوا جَمِيعًا، وكُلٌّ مِنْهُم يؤثِرُ أخَاهُ عَلَى نَفْسِهِ بِشَرْبَةِ مَاءٍ حَتَّى فِي اللَّحْظَةِ الأخِيرَةِ.. لَحْظَةَ الْمَوتِ!!

* * * * *

طَبَقُ الدَّرَاهِم

ذَاتَ يومٍ، أرسَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيرِ ـ رَضِي اللَّهُ عَنهما ـ مِئَةَ ألفَ دِرْهَمٍ إلَى خَالَتِه أمِّ الْمُؤمِنِينَ عَائشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْها.

أخَذَتِ السَّيدَةُ عَائشَةُ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا ـ الدَّارَاهِمَ، وَقَالَتْ لِخَادِمَتِهَا: أحْضِرِي طَبَقاً.

فَقَامَت الْخَادمةُ وأحْضَرَتْ طَبَقًا كَبِيرًا، فَوضَعَتِ السَّيدَةُ عَائشَةُ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْها ـ الدَّرَاهِمَ كُلَّهَا فِيه، ثُمَّ أخَذَتْ تُقَسِّمُهَا، وتُرْسِلُ مِنْهَا إلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلمين بِالْمَدينَةِ، حَتَّى أنْفَقَتْ جَمِيعَ الدَّراهِمِ ولَمْ يبْقَ مِنْهَا شَيءٌ.

وكَانَتِ السَّيدَةُ عَائشَةُ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْها ـ صَائمَةً فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، فَلَمَّا حَانَ وَقْتُ الإفْطَارِ، طَلَبَتْ مِنْ جَارِيَتِهَا أنْ تُحْضِرَ الطَّعَامَ، فأحْضَرَتِ الْجَارِيةُ خُبْزاً وزَيتاً، وقَالَتْ لِعَائشَةَ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا ـ: يا أمَّ الْمُؤمِنِينَ! أمَا اسْتَطَعْتِ فِيمَا قَسَّمْتِ الْيومَ أنْ تَشْتَرِي لَنَا بِدرهَمٍ لَحْمًا نُفْطِرُ عَلَيه. فَقَالَتِ السَّيدَةُ عَائشَةُ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْها ـ: لو كُنْتِ ذَكَّرْتِينِي لَفَعَلْتُ.

* * * * *

إيثَارٌ بالنَّفْسِ

تَآمَرَ كُفَّارُ قَرَيشٍ عَلَى قَتْلِ النَّبِي ﷺ، ووقَفَ فُرْسَانُهُمْ الأشِدَّاءُ، حَامِلِينَ سُيوفَهُمْ أَمَامَ بَابَ بَيْتِه. ولَكِنَّ اللَّهَ حَفِظَهُ مِنْهُمْ، ومِنْ كَيدِهِمْ، فَأوحَى لِنَبيهِ ﷺ أنْ يهَاجِرَ مِنْ مكَّةَ إلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ.

فَطَلَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ أنْ ينَامَ فِي فِرَاشِه، فَلَمْ يتَرَدَّدْ عَلِيّ فِي الْمُوافَقَةِ عَلَى طَلَبِ النَّبِي ﷺ، وقَدَّمَ نَفْسَهُ فِدَاءً لَهُ، فَنَامَ فِي فِرَاشِه، وتَغَطَّى بِبُرْدَتِه، وهُوَ يعْلَمُ أنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ يقْتُلُونَهُ لِظَنِّهِمْ أنَّهُ النَّبِي ﷺ، أو إذا عَلِمُوا أنَّهُ خَدَعَهُمْ ونَامَ مكَانَهُ.

وخَرَجَ النَّبِي ﷺ مِنْ بَينِهِمْ سَالِماً، وهُمْ غَافِلُونَ، ولَمَّا نَظَرَ الْمُشْرِكُونَ مِنَ البَابِ، ظَنُّوا أنَّ النَّبِي ﷺ مَا زَالَ نائماً، ثُمَّ فُوجِئُوا بِأنَّ النَّائمَ هُوَ عَلِيٌّ. ونَجَّى اللَّهُ رسُولَهُ ﷺ، وأحَاطَ عَلِيّاً بِرِعَايتِهِ؛ فَلَمْ تَمْتَدَّ إلَيهِ أيدِي الْمُشْرِكِينَ بِأذًى، جَزَاءَ إيثَارِهِ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى نَفْسِهِ.

جِوَارُ الْحَبِيبَيْنِ

خرَجَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ مِنْ بَيتِه، قَبلَ الفَجْرِ، وتَوَجَّه إلَى الْمَسْجِدِ لِيصَلِّي بِالنَّاسِ إمَاماً؛ خَاشِعاً للَّهِ رَاكِعاً سَاجِداً.

فَجَاءَ أبُو لُؤلُؤةَ الْمَجُوسِيُّ بِالْغَدْرِ والخيانَةِ، وطَعَنَهُ بِخِنْجَرٍ وهُوَ يصَلِّي، فَجرَحَهُ جُرْحاً شَدِيداً.

فَلَمَّا أحَسَّ عُمَرُ بِاقْتِرَابِ أجَلِه أحَبَّ أنْ يُدْفَنَ بِجوَارِ حَبِيبَيْه مُحَمَّدٍ ﷺ وأبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِي اللَّهُ عَنْه، فَأَرْسَلَ ابْنَهُ عَبْدَ اللَّه إلَى السَّيدَةِ عَائشَةَ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْها ـ كَي يسْتَأذِنَهَا فِي أنْ يدْفَنَ بِجوَارِهِمَا.

فَذَهَبَ عَبْدُ اللَّه إلَى بَيتِ السَّيدَة عَائشةَ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْها ـ فَألْقَى عَلَيهَا السَّلامَ، ثُمَّ استَأذَنَ فِي الدُّخُولِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: إنَّ عُمَرَ ابْنَ الخَطَّابِ يقْرَأُ عَلَيكِ السَّلامَ، ويسْتَأذِنُك فِي أنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيهِ. فَوَافَقَتْ أمُّ الْمُؤمِنِينَ، بِرَغْمِ أنَّهَا كَانَتْ تُرِيدُ أنْ تُدْفَنَ مَعَ زَوجِهَا ﷺ وأبِيهَا الصِّدِّيقِ رَضِي اللَّهُ عَنْه.

ولَكِنَّهَا آثَرَتْ أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ عَلَى نَفْسِهَا بِهَذَا الْجِوَارِ الطَّيِّبِ الكَرِيمِ.

قُنْبُر والإمَامُ

يحكَى أنَّ الإمَامَ عَليَّ بْنَ أبِي طَالِبٍ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ ذَهَبَ إلَى السُّوقِ ذَاتَ يومٍ، وكَانَ مَعَهُ خَادِمُهُ «قُنْبُر».

ووقَفَ الإمَامُ وخَادِمُهُ عِنْدَ غُلامٍ يبِيعُ الْمَلابِسَ، وقَالَ لَهُ: يا غُلامُ! أعْطِنَا ثَوبَينِ بِخَمْسَةِ دَرَاهِمَ (ولَمْ يكُنْ مَعَهُ غَيرُ هَذِهِ الدَّارَهِم).

فَأعْطَاهُ الغُلامُ ثَوبَينِ: أحَدُهُمَا بِثَلاثَةِ دَارَهِمَ، والآخَرُ بِدِرْهَمَينِ.

أخَذَ الإمَامُ عَليٌّ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ الثَّوبَينِ، وأعْطَى لِخَادِمِه الثَّوْبَ الأغْلَى.

فَرَفَضَ قُنْبُر ، وقَالَ : يا إمَامُ ! خُذْ أنْتَ الثَّوْبَ الأغْلَى ؛ لأنَّكَ تَقِفُ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وتَخْطُبُ فِي النَّاسِ.

ولَكِنَّ الإمَامُ عَلِيّاً ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ أصَرَّ عَلَى أنْ يأخُذَ هُوَ الثَّوبَ الأرْخَصَ ، وأنْ يأخُذَ خَادِمُهُ الثَّوبَ الأغْلَى ، وقَالَ لَهُ : أنْتَ شَابٌّ ، وأنَا أسْتَحِي مِنْ رَبِّي أنْ أتَمَيزَ عَلَيكَ.

إيثَارٌ يُعْجِبُ اللَّهَ

جَاءَ رَجُلٌ إلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وطَلَبَ مِنْهُ طَعَاماً ، وكَانَ الرَّجُلُ جَائعًا. فَأرْسَلَ النَّبِي ﷺ إلَى زَوجَاته ، وطَلَبَ لَهُ طَعَاماً ، ولَكِنَّهُ لَمْ يجِدْ عِنْدَ زَوجَاته شَيئًا إلا الْمَاءَ ، فقَالَ ﷺ لأصْحَابِه : «مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيلَةَ ؟» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ : أنَا يا رَسُولَ اللَّهِ. وذَهَبَ الرَّجُلُ مَعَ الأنْصَارِي إلَى بَيتِهِ.

فَلَمَّا دَخَلَ الأنْصَارِي عَلَى زَوجَتِهِ سَألَهَا : هَلْ عِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ : لا.. إلاَّ طَعَامَ أطْفَالِي.

فَقَالَ لَهَا : اشْغَلِيهِمْ وألهِيهِمْ بِشَيءٍ ، وإذَا أرَادُوا العَشَاءَ نَوِّمِيهِمْ ، وَحِينَ يدْخُلُ ضَيفُنَا أطْفِئِي الْمِصْبَاحَ ، وسَوفَ أُشْعِرُهُ أنِّي آكُلُ مَعَهُ.

وفَعَلَ الأنْصَارِيُّ وزَوجَتُهُ مَا اتَّفَقَا عَلَيهِ ، وأكَلَ الضَّيفُ وشَبِعَ ، ونَامَ الرَّجُلُ وزَوجَتُهُ وأولادُهُ جَائعِينَ. وفِي الصَّبَاحِ ذَهَبَ الأنْصَارِيُّ إلَى الْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا شَاهَدَهُ ﷺ أخْبَرَهُ أنَّ اللَّهَ قَدْ عَجِبَ مِمَّا صَنَعَهُ هُوَ وزَوجَتُهُ مَع ضَيفِهِمَا مِنْ كَرَمٍ وإيثَارٍ.

إيثَارٌ.. وتَعَفُّفٌ

لَمَّا هَاجَرَ النَّبِي ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، آخَى بَينَ الْمُهَاجِرِينَ والأنْصَارِ.

فَكَانَ كُلُّ أنْصَارِيٍّ يستَضِيفُ أخاً لَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، ويقْتَسِمُ مَعَهُ مَالَهُ وبيتَهُ.

واستَضَافَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ عَبْدَ الرَّحْمَنِ ابْنَ عوفٍ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ ، وقَالَ لَهُ: يا أخِي! هَذَا نصْفُ مَالِي، ونِصفُ بَيتِي، وهَاتَان زَوجَتَاي، اخْتَرْ مَا شِئتَ مِنْهُمَا حَتَّى أطَلِّقَهَا؛ فتَتَزَوَّجَهَا بَعْدَ انْتِهَاءِ عِدَّتِهَا.

فَشكَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عوف ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ عَلَى هَذَا الكَرَم وهَذَا الإيثَارِ، وقَالَ لِسَعْدٍ فِي تَعَفُّفٍ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ يا أخِي فِي مَالِكَ وبَيتِكَ وَأهْلِكَ، دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ.

فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إلَى السُّوقِ، وعَمِلَ بِالتِّجَارَةِ، فَبَاعَ واشْتَرَى، والتَزَمَ بِأخْلاقِ التَّاجِرِ الْمُسْلِمِ التَّقِيِّ.

ومَعَ مُرُورِ الوَقْتِ.. صَارَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوفٍ ـ رَضِي اللَّهُ عَنْه ـ مِنْ أغْنَى أغْنِياءِ الْمَدِينَةِ.

* * * * *

إيثَارٌ بالهَدِيَّةِ

ذَاتَ يوْمٍ.. قَرَّرَتْ إحْدَى الصَّحَابياتِ أنْ تَصْنَعَ ثَوبًا جَمِيلاً، وظَلَّتْ تَنْسِجُ فِيهِ مُدَّةً طَوِيلَةً، وأحْسَنَتْ صُنْعَهُ ونَسْجَهُ، فَلَمَّا انْتَهَتْ مِنْهُ، أخَذَتْهُ وذَهَبَتْ بِهِ إلَى النَّبي ﷺ، وقَدَّمَتْهُ لَهُ كَهَدِيةٍ، وكَانَ ﷺ يقْبَلُ الهَدِيةَ، فَأخَذَهُ وشَكَرَهَا.

ولَبِسَ ﷺ الثَّوْبَ، فَرآهُ أحَدُ الصَّحَابةِ، فَأُعْجِبَ بِهِ، وطَلَبَ مِنَ النَّبِي أنْ يعْطِيهُ لَهُ، ولَمْ يكُنِ النَّبِي ﷺ يردُّ أحَدًا إذَا سَألَهُ، فَقَدْ كَانَ كَرِيماً جَوَاداً، وكَانَ فِي كَرَمِهِ وجُودِهِ أجْوَدَ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ، وكَانَ يعْطِي عَطَاءَ مَنْ لا يخْشَى الفَقْرَ. فَخَلَعَ ﷺ الثَّوْبَ وأعْطَاهُ الرَّجُلَ، وآثَرَهُ عَلَى نَفْسِهِ.

فعَاب بَعْضُ الصَّحَابَةِ عَلَى الرَّجُلِ أنْ يأخُذَ ثَوبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وهُوَ يعْلَمُ أنَّهُ مُحْتَاجٌ إلَيهِ.

فَبَيَّنَ لَهُمُ الرَّجُلُ أنَّهُ لَمْ يأخُذْهُ لِيلْبَسَهُ، وإنَّمَا أخَذَهُ لِيكُونَ لَهُ كَفناً، فَينَالَ بِهِ بَرَكَةَ الرَّسُولِ ﷺ. وبِالْفِعْلِ كُفِّنَ هَذَا الصَّحَابِيُّ فِي هَذَا الثَّوبِ الطَّاهِرِ. وهكَذَا قَدَّمَ ﷺ لأصْحَابِهِ ولَنَا دَرْسًا عَظِيماً فِي الإيثَارِ.

* * * * *

التَّاجِرُ والكَلْبُ

يُحكَى أنَّ تَاجِراً غَنِيّاً كَانَ لَهُ كَلْبٌ وفِيٌّ، يسْتَخْدِمُه فِي الْحِرَاسَةِ.

وكانَ التَّاجِرُ يحْسِنُ مُعَامَلَةَ الكَلبِ؛ مِمَّا جَعَل الكَّلبَ يزْدَادُ وَفَاءً للتَّاجِرِ يومًا بَعدَ يومٍ.

وذَاتَ يومٍ، طَلَبَ التَّاجِرُ مِنْ خَادِمِهِ أنْ يجهِّزَ لَهُ الطَّعَامَ، فَأسْرَعَ الخَادِمُ وأعَدَّ طَعَاماً شَهِيّاً، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى الْمَائدَةِ، وانْصَرَفَ لِيُحْضِرَ بَعْضَ الأشْيَاءِ الأخْرَى.

وكَانَ الكَلْبُ واقِفًا بِالْقُربِ مِنَ الْمَائدَةِ، فَرأَى مَنْظَراً مُخِيفاً.. رَأى ثُعْبَانًا يدخُلُ مِنَ البَابِ، ويصْعَدُ فَوقَ الْمَائدَةِ، ويأكُلُ مِنَ الطَّعَامِ، ثُمَّ ينْفُثُ فِيهِ مِنْ سُمِّهِ القَّاتِلِ. فَجَرَى الكَلْبُ خَلْفَ الثُّعْبَان، وحَاولَ أنْ يفْتِكَ بِهِ، لَكِنَّهُ خَرجَ سَرِيعًا، واخْتَفَى فِي جُحْرٍ عَمِيقٍ فِي حَدِيقَةِ الْمَنْزِلِ.

وأثْنَاء هَذِهِ الأحْدَاث، دَخَلَتْ فَتَاةٌ خَرْسَاء، فَشَاهَدَتِ الثُّعْبَانَ، ورَأَتْ مَا فَعَلَهُ، ولَكِنَّهَا خَافَتْ ولَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تَفْعَلَ شَيئًا، فَخَرَجَتْ مُسْرِعَةً تَبْحَثُ عَنْ أحَدٍ؛ لِتُخْبِرَهُ بِمَا حَدَثَ.

وبعدَ لَحظَاتٍ، حَضَرَ التَّاجِرُ، وجَلَسَ لِيتَنَاولَ الطَّعَامَ، فَجَرَى الكَلْبُ نَحْوَهُ، ووقَفَ قَرِيباً مِنْهُ، وهُوَ ينْبَحُ مُحَاولاً أنْ ينَبِّهَهُ إلَى مَا حَدَثَ.

ولَكِنَّ التَّاجِرَ لَمْ يفْهَمْ حَقِيقَةَ الأمْرِ، وظَنَّ أنَّ الكَلْبَ جَائعٌ فَقَدَّمَ لَهُ بَعْضَ الطَّعَامَ، لَكِنَّ الْكَلْبَ ابْتَعَدَ عَنِ الطَّعَامِ، ولَمْ يأكُلْ مِنْهُ، وظَلَّ ينْبَحُ بِشِدَّةٍ.

فَتَعَجَّبَ التَّاجِرُ، ولَكِنَّهُ لَمْ يهْتَمَّ، ومَدَّ يدَهُ نَحْوَ الطَّعَامِ، فَقَفَزَ الكَلْبُ بِسُرْعَةٍ إلَى الْمَائدَةِ، وأكَلَ مِنَ الطَّعَامِ، فَسَقطَ مَيْتاً، فألقَى التَّاجِرُ الطَّعَامَ مِنْ يدِهِ قَبْلَ أنْ يأكُلَ مِنْهُ، ووقَفَ مَذْهُولاً مِمَّا حَدَثَ.

وفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، جَاءَتِ الفَتَاةُ الخَرْسَاءُ، ومَعَهَا بَعْضُ الْخَدَمِ، فَأشَارَتْ إلَيهِمْ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ مَا حَدَثَ، فَعرَفَ التَّاجِرُ حَقِيقَةَ الأمْرِ، وعَلِمَ مِقْدَارَ وَفَاءِ الكَلْبِ لَهُ، الَّذِي ضَحَّى بِنَفْسِهِ مِنْ أجْلِ التَّاجِرِ.

فَتَأثَّرَ التَّاجِرُ بِمَا فَعَلَهُ الكَلْبُ الوَفِيُّ، وقَالَ لِخَدَمِهِ: هَذَا الكَلْبُ قَدْ فَدَانِي بِنَفْسِهِ؛ ولِذَلِكَ سَوفَ أقُومُ بِدَفْنِهِ إكْرَامًا لَهُ؛ لأنَّهُ آثَرَنِي عَلَى نَفْسِهِ.

الغُلامُ والكَلْبُ

يرْوَى أنَّ غُلامًا كَانَ يحْرُسُ حَدِيقَةَ نَخِيلٍ، وكَانَ هَذَا الغُلامُ تَقِيًّا قَوِيَّ الإيمَانِ طَيِّبَ الخُلُقِ.

وذَاتَ يومٍ، جَاءَ وقْتُ تَنَاولِ الطَّعَامِ، فَأحْضَرَ الغُلامُ طَعَامَهُ وكَانَ ثَلاثَةَ أرْغِفَةٍ مِنَ الخُبْزِ، فَأمْسَكَ بِرَغِيفٍ مِنْهَا، وسَمَّى اللَّه قَبْلَ أنْ يأكُلَ.

وفَجْأةً، رأى كَلْباً يجْرِي نَحْوَهُ وهُوَ يلْهَثُ، واقْتَرَبَ مِنْهُ، وركَّزَ نَظَرَهُ عَلَى يدَيهِ، فَفَهِمَ الغُلامُ أنَّ الكَّلْبَ جَائعٌ، فَألْقَى لَهُ الرَّغِيفَ الَّذِي فِي يدِهِ.

فَأكَلَهُ الكَلْبُ بِنَهَمٍ وشَرَاهَةٍ، ثُمَّ عَادَ ينْظُرُ للغُلامِ مَرَّةً ثَانِيةً، فألْقَى لَه الرَّغِيفَ الثَّانِي فَأكَلَهُ.

ومَرَّةً ثَالِثَة، نَظَرَ الكَلْبُ للغُلامِ، فَأسْرَعَ وقَدَّمَ لَهُ الرَّغِيفَ الثَّالِثَ، فَأكَلَهُ الكَلْبُ، ثُمَّ انْصَرَفَ.

هَذَا الْمَشْهَدُ العَجِيبُ شَاهَدَهُ رَجُلٌ صَالِحٌ مَعْرُوفٌ بِالكَرَمِ، دُونَ أنْ يلاحِظَهُ الْغُلامُ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وسَألَهُ: مَا قَدْرُ طَعَامِكَ فِي اليوْمِ يا غُلامُ؟

فَقَالَ لَهُ: ثَلاثَةُ أرْغِفَةٍ مِنَ الخُبْزِ، يُحْضِرُهَا لِي صَاحِبُ هَذِهِ الحَدِيقَةِ كُلَّ يومٍ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَلِمَ فَعلْتَ ذَلكَ مَعَ الكَلْبِ؟

قَالَ الغُلامُ: لأنَّ أرْضَنَا هَذِهِ لا تَعيشُ فِيهَا كِلابٌ، وأظُنُّ أنَّ هَذَا الكَلْبَ جَاءَ مِنْ مكَانٍ بَعِيدٍ، لِيبْحَثَ عَنْ طَعَامٍ بَعْدَ أن اشْتَدَّ بِهِ الْجُوعُ، فَكَرِهْتُ أنْ يعُودَ جَائعًا. قَالَ الرَّجُلُ: مَاذَا سَتأكُلُ اليوْمَ إذَنْ؟ رَدَّ الغُلامُ قَائلاً: لَنْ آكُلَ وسَأصْبِرُ إلَى الغَدِ.

فَقَالَ الرَّجُلُ وهُوَ يحَدِّثُ نَفْسَهُ: يلُومُنِي النَّاسُ عَلَى سَخَائي وكَرَمِي، واللَّهِ إنَّ هَذَا الغُلامَ أسْخَى مِنِّي.

وتَرَكَ الرَّجُلُ الغُلامَ، وذَهَبَ إلَى أصْحَابِ الْحَدِيقَةِ الَّتِي يعْمَلُ بِهَا هَذَا الغُلامُ.

فاشْتَرَاهَا بِمَا فِيهَا، ثُمَّ أعْطَاهَا هَدِيَّةً للغُلامِ؛ إعْجَابًا بِمَا فَعلَ، وتَقْدِيرًا لِحُسْنِ خُلُقِه، وكَرِيمِ عَطَائِه.

فَالغُلامُ أحسَّ بِأنَّ الكَّلبَ جَائعٌ، فَأعْطَاهُ مَا لَدَيهِ مِنْ طَعَامٍ، وبَاتَ وهَوَ يعَانِي مِنَ الْجُوعِ، وكَانَ جَزَاءَ مَا صَنَعَ أنْ أصْبَحَتِ الحَدِيقَةُ مِلْكًا لَهُ، بِالإضَافَةِ إلَى الثَّوابِ العَظِيمِ مِنَ اللَّهِ يومَ القِيامَةِ.

قِصَصٌ فِي الإيثَارِ

هَذَا هُوَ الإيثَارُ، أحَدُ الأخْلاقِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا الْمُسْلِمُونَ الصَّادِقُونَ، يَبذُلُونَ مِمَّا أعْطَاهُمُ اللَّهُ وهُمْ رَاضُونَ سُعَدَاءُ، حَتَّى وإنْ كَانُوا فِي أشَدِّ الْحَاجَةِ إلَيهِ.

فالإيثَارُ أنْ يقَدِّمَ الْمُسْلِمُ حَاجَةَ أخِيهِ عَلَى نَفْسِه؛ رَغْبَةً فِي ثَوابِ اللَّهِ وجَنَّتِه. والإيثَارُ يؤدِّي إلَى تَرَابُطِ الْمُجْتَمَعِ وقُوَّتِه، ويغْرِسُ الألْفَةَ والْمَوَدَّةَ فِي قُلُوبِ أبْنَائِه، ويجْعَلُهُم جَسَدًا واحِدًا يشْعُرُ كُلٌّ مِنْهُمْ بِحَاجَةِ أخِيهِ، ويسَارِعُ فِي قَضَائِهَا، مُقْتَدِينَ فِي ذَلِكَ بِصَحَابَةِ النَّبِي ﷺ، الَّذِينَ كَانُوا مِثَالاً رَائعًا فِي الإيثَارِ والْبَذْلِ والعَطَاءِ.

والإيثَارُ - كَمَا رَأينَا - قَدْ يكُونُ بِالْمَالِ، أو بِالنَّفْسِ وهُوَ أعْلَى دَرَجَاتِ الإيثَارِ، ولَكِنْ لا إيثَارَ فِي أعْمَالِ الخَيرِ والْبِرِّ، أو العِبَادَاتِ، والفَضْلُ فِي ذَلِكَ لِمَنْ سَبَقَ إلَيهَا.

سلسلة قصص في الأخلاق

١ - قصص في الأخلاص
٢ - قصص في الأمـــانة
٣ - قصص في الإيثـــار
٤ - قصص في البـــر
٥ - قصص في التّعاون
٦ - قصص في التّواضع
٧ - قصص في التّوكل
٨ - قصص في الحبّ
٩ - قصص في الحِـلم
١٠- قصص في الحيـاء
١١- قصص في الرحمة
١٢- قصص في الشجاعة
١٣- قصص في الشُّـكر
١٤- قصص في الشُّورى
١٥- قصص في الصَّبر
١٦- قصص في الصِّدق
١٧- قصص في الطّاعة
١٨- قصص في العــدل
١٩- قصص في العفــو
٢٠- قصص في الكـــرم
٢١- قصص في الوفـــاء

٨١٠٠٥٦